المحاضرة الثانية: جون لـــــــــوك: رسالـــــــة في التسامـــــــــــح.

الطبعة العربية، ترجمة: منى أبو سنة، الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة-مصر، الطبعة الأولى،1997.

ألف هذه الرسالة باللغة اللاتينية الفيلسوف جون لوك (1632ــ 1704)، وقد تم طبعها في هولندا سنة 1689, وترجمت في نفس العام للانجليزية, وبعد طباعتها نفدت في فترة وجيزة, ثم كرر الناشر طباعتها, وترجمها عن اللاتينية مع مقدمة مستفيضة وتعليقات الدكتور عبد الرحمن بدوي. وتتلخص دعوة جون لوك للتسامح بقوله: ليس لأي إنسان السلطة في أن يفرض على انسان آخر ما يجب عليه أن يؤمن به أو أن يفعله لأجل نجاة روحه هو، لأن هذه المسألة شأن خاص ولا يعني أيّ انسان آخر. ان الله لم يمنح مثل هذه السلطة لأي إنسان، ولا لأية جماعة، ولا يمكن أي إنسان أن يعطيها لإنسان آخر فوقه إطلاقاً.

ويرجع هذا إلى سببين:
الأول: هو أن الناس في كل الدول معرضون للخطأ، سواء أكانوا حكّاماً أم كانوا محكومين، علماء أو أساتذة، فليس من المعقول أن يوضع الانسان تحت التوجيه المطلق لأولئك الذين يمكن أن يقعوا في الخطأ في مسألة بهذه الخطورة ــ الخطورة الأبدية ــ إنهم إن أساءوا إرشادنا فلن يستطيعوا تعويضنا.
والثاني: إنه لا فائدة في استعمال القوة لجعل الناس على الجادّة المستقيمة نحو النجاة. ذلك لأنه لا يمكن أيّ إكراه أن يجعل إنساناً يؤمن بضد ما يقتنع به على ضوء عقله واقتناعه... وإن كان قد يحمله على الإقرار باللسان؛ لكن الإقرار باللسان غير المقترن بالإخلاص لن يقدم الإنسان إلى أيّ مكان غير ذلك الذي يتقاسمه مع المنافقين، ولن يفعل شيئاً في عبادة الله لا يحكم ضميره بأنه العبادة التي يتطلبها ويقبلها الله. لهذا لا يجوز إرغام أحد على الدخول في مشاركة يحكم هو في أعماق ضميره بأنها مضادة لما يراه الغرض من الدخول في هذه المشاركة، أي نجاة روحه.
ويمكن إيجاز أفكار جون لوك الأساسية الواردة في ثنايا رسالته في التسامح بمفاهيم رئيسية هي:
1ــ لابد من التمييز الدقيق بين مهمة الحكومة المدنية, وبين مهمة السلطة الدينية, واعتبار الحدود بينهما ثابتة لا تقبل أي تغيير.
2ــ رعاية نجاة روح كل إنسان هي أمر موكول إليه هو وحده، ولا يمكن أن يعهد بها إلى أية سلطة مدنية أو دينية.

3ــ لكل إنسان السلطة العليا المطلقة في الحكم لنفسه في أمور الدين.
4ــ حرية الضمير حق طبيعي لكل إنسان.
5ــ يجب أن لا تتهم المذاهب المخالفة للمذهب السائد في الدولة بأنها بؤر لتفريخ الفتن وألوان العصيان. إن هذه التهمة لن يكون لها أي مبرر إذا ما قام التسامح، فإن السبب في وجود دواعي الفتنة عند المخالفين هو ما يعانونه من اضطهاد من جانب المذهب السائد. ولهذا فإنه متى مازال الاضطهاد واستقر التسامح معهم, زالت أسباب النوازع إلى الفتنة والعصيان. فوجود نوازع الفتنة بينهم إنما مرجعه إلى ما يلاقونه من اضطهاد وعذاب.
6ــ من أسباب التآمر والفتن استبداد الحاكم ومحاباته لأتباعه ولبني دينه. ولو أن الحاكم اتبع النزاهة والإنصاف مع الرعية لما تآمروا عليه. فإن زعم الحاكم أنه إنما يفعل ما يفعل لأن هذا هو ما يقتضيه((الصالح العام)). بينما قال المخالفون إن هذا ليس من الصالح العام. فمن ذا الذي يستطيع أن يفصل في الأمر بينهما ؟
يجيب لوك بأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يفصل في هذا الخلاف، لأنه ل ايوجد على الأرض حكم بين الشعب وبين الحاكم. لهذا يرى لوك أن من حق الأفراد أن يستخدموا القوة في الدفاع عن أنفسهم ضد السلطة الظالمة.